العنف في بعده السياسي

الدكتور سامي مُحَمَّد صالح الدلال

نشر في كتاب

ظاهرة التطرف والعنف..

من مواجهة الآثار إلى دراسة الأسباب

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى محرم 1428هـ موافق يناير 2007م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان 1439 / مايو 2018

العنف في بعده السياسي

الدكتور سامي مُحَمَّد صالح الدلال (*)

إن تعطيل الجهاد الشرعي قد أدى إلى انطلاق قوى الشر على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية، وأفضى إلى انتشار العنف في أنحاء المعمورة وإحداث خلل فادح في توازن الأمن الدولي؛ وهذه النتيجة تعتبر طبيعية في ظل كبت قوى الحق والعدل، التي لن تكون فاعلة على هذه الأرض إلا من خلال انطلاقها من قيم الإسلام والتزامها بها.

مدخل:

تتداول الألسنة وتنشر الصحافة والمجلات وتخط أيدي الكتاب المقالات والدراسات وتتناقل أجهزة الإعلام كلمات من مثل «العنف» و«الإرهاب» و«التطرف» و«الوسطية».

لذا فإن كلامنا عن «العنف» لا ينفك عن كلامنا عن الكلمات الأخرى، فلابد من سوق دلالات كل منها، حيث إن هذه الكلمات ستتكرر خلال سياقات هذا المبحث.

– **العنف** لغة: الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق، وعنيف: إذا لم يكن رفيقاً في أمره، وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف من الشر مثله.. والتعنيف: التعيير واللوم والتوبيخ والتقريع»[1].

(*) باحث .. مدير مركز الركن.. (الكويت).

(1) لسان العرب 257/9، 258.

ولقد استخدمت كلمة العنف في الاصطلاح بنفس مدلولها اللغوي. وجاء في الحديث الصحيح: « **إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ** »[1].

- **الإرهاب** لغة: مصدر رهب. قال ابن منظور: «رهب بالكسر، يرهب رهبة ورهباً بالضم، ورهباً بالتحريك. أي: خاف. والرهبة: الخوف والفزع. وأرهبه ورهبه واسترهبه: أخافه وفزعه. واسترهبه: استدعى رهبته حتى رهبه الناس، وبذلك فسر قوله عز وجل: ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف:116)، أي أرهبوهم. قال ابن الأثير: هي الحالة التي ترهب، أي تفزع وتخوف[2]. وجاء في التنزيل في مادة «رهب» ثمانية آيات، كلها مشتقة من المدلول اللغوي الذي سقته.

قال تعالى: ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (الأعراف: 154) و﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (البقرة:40) و﴿ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (النحل:51). أي: «فخافوني، من الرهبة وهي الخوف مطلقاً أو خوف معه «تحرز»[3]. «أي يخافون أشد الخوف من ربهم»[4]. وقال تعالى: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال:60)، أي: تخوفون [5]. وقال تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(1) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب.
(2) لسان العرب، 437/1.
(3) الشيخ حسنين محمد مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن، ص 14.
(4) المصدر السابق، ص 222.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 82/4.

(الحشر:13)، أي «يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله»[1]. وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (الأنبياء:90)، أي: «يتضرعون إليه طلباً للخير ودفعاً للشر»[2].

وأما اصطلاحاً فإن أعداء الإسلام والمسلمين قد أضفوا على هذه الكلمة معنى يستفيدون منه لتنفيذ مخططاتهم الإجرامية بحق المسلمين عموماً، فقالوا إن الإرهاب هو القتل والتدمير مطلقاً، ثم حصروا هذا المعنى على المسلمين، وأما لفظ الإرهاب حسب المصطلح الإسلامي فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: 60) وذلك بإلحاقه بمدلوله اللغوي الذي ذكرته .

التطرف لغة: قال في لسان العرب: «ابن سيده: طرف كل شيء منتهاه.. وتطرف الشيء: صار طرفاً. الأزهري: أطراف الأرض نواحيها»[3] . والطرف: أبعد نقطة من الوسط، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ (الحج:11): أي: على طرف من دينه، غير متوسط فيه ولا متمكن. ولقد استخدم هذا اللفظ اصطلاحاً علماً على الغلو وعلى إنزال الأمر على أشد معانيه وأعنتها.

الوسطية لغة: مشتقة من الوسط. قال في لسان العرب: «الوسط، بالتحريك، اسم لما بين طرفي الشيء... فلما كان وسط الشيء أفضله وأعدله جاز أن يقع صفة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة:143). واستخدمت لفظة «الوسطية» اصطلاحاً للتدليل على الالتزام بالكتاب والسنة، ولكن

(1) المصدر السابق، 74/8.
(2) محمد سليمان الأشقر، زبدة التفسير، ص 430.
(3) ابن منظور، لسان العرب، 482/7.

وظفها بعضهم لصرف المسلمين عن الجهاد ومقاومة أعداء المسلمين.

العنف والإرهاب والتطرف والوسطية:

إذا دققنا النظر في تعاريف الكلمات السابقة فإننا سنجد بينها نوع تداخل أو تفاصل. فالعنف يتضمن الإرهاب، فكل عنف فيه إرهاب، ولكن الإرهاب وهو بمعنى التخويف فإنه قد يتضمن العنف وقد لا يتضمنه، بحسب الحال، فإن إعداد السلاح فيه إرهاب للعدو وقد لا ينتج عنفاً، واستباحة أراضي العدو وأخذ ماله وسبي نسائه وأبنائه عنف، ولكن فيه إرهاب للعدو الآخر الذي لم يقع معه قتال بعد.

والعنف قد يتضمن تطرفاً إذا مورس بشدة تفوق المطلوب، وكذلك فإن العنف ربما كان متضمناً في معنى الوسطية إذا كانت الوسطية تقتضي إعمال الجهاد إنفاذاً للكتاب والسنة. وكذا الإرهاب فإنه إذا تقيد بمدلول الكتاب والسنة فإنه يقع في مدلول الوسطية، وإذا لم يتقيد بها فإنه ربما وقع في مدلول التطرف.

وإما التطرف فإنه يقع في موضع ما من مساحتي العنف والإرهاب، لكن ليس له موضع في مساحة الوسطية، فلا يقال: إن هذا الوسط متطرفاً أو أن هذا التطرف وسطاً، فإن هذا تناقض قائم بذاته.

وأما الوسطية، فإنها قد تتضمن العنف والإرهاب بحسب الحال، ويكون عندها العنف والإرهاب هو الوسطية، فإن مدافعة العدو الصائل بالعنف والإرهاب يعتبر وسطية، لأن ذلك مطلوب فعله بأمر الكتاب والسنة.

العنف بين المبدئية والهوى:

لابد من التفريق بين استعمال العنف في إطار خدمة المبدأ وبين استخدامه في إطار خدمة شهوة النفس، وهو العنف الناجم عن الهوى. ففي إطار خدمة المبدأ ينظر إليه بحسبه، فإن كان المبدأ باطلاً فالعنف المبذول في سبيله باطل وهم ظلم. وإن كان حقاً فالعنف المبذول في سبيله فيه تفصيل. وأما إن كان لأجل إشباع شهوة النفس، فهو باطل في جوهره، ولكن إن وافق في ذلك حقاً في وجه من الوجوه فهو مقبول بقدر ما يحقق ذلك الوجه، وهذا القبول هو من حيث ظاهره، وأما باطنه – أي النية التي رافقته – فالحساب فيها عند الله تعالى.

بعد ذلك التعميم ندخل إلى التخصيص، فأقول:

في الأرض الآن مبدءان: الأول، هو الإسلام، وهو دين رباني، والثاني: هو ما سوى الإسلام، وهو إنساني بشري. والفرق بينهما أن دين الإسلام يحقق السعادة للبشرية وما سوى الإسلام قد يجلب بعض الشقاء والضنك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه:124). ولذلك فإنه لا عنف في الإسلام إلا بنص شرعي، إما آية من كتاب الله تعالى أو حديث صحيح ورد عن رسول الله ﷺ. فالعنف إن استخدم في حدود النص فهو مشروع ويوطد الحق والعدل، فاستخدامه في إطار محكم الشريعة جالب للخير والفلاح، وهذا لا يكون واقعياً إلا في بوتقة الاحتكام للشريعة عملياً، أي أن يكون الدستور الحاكم دستوراً إسلامياً. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة:50)، فالعنف في بعده السياسي إن كان في هذا الإطار فهو مطلوب، ليس لذاته، بل لما تحقق به من المصالح العاجلة والآجلة.

أما العنف الناجم عن الاحتكام لما سوى الإسلام فهو بلا شك محكوم بنزعات

الهوى، وهو إما أن يكون مقنناً دستورياً أو غير مقنن، بل متروك لإشباع رغبات الممارسين للعنف. وهذا العنف يفاقم الظلم ويعمق آثاره ويدمر حياة الناس ويقضي على آمالهم ويكاثر آلامهم. إن هؤلاء الناس المظلومين ليس أمامهم ليتخلصوا من سطوة هذا العنف إلا سلوك طريق واحد، ليس له بديل، ألا وهو الإسلام، فلطالما كانوا مبتعدين عنه في شؤون حياتهم فإن عليهم أن يدفعوا ضريبة العنف الظالم الجائر. ولهذا فإن المطالبة باحتكام الناس إلى الإسلام ينبغي أن تأخذ مجالاتها العالمية، أي أن يكون ذلك مطلباً عالمياً. ففي ضمن هذا المعنى الراقي ينبغي أن تتوجه جهود المؤسسات الإسلامية في مختلف بقاع الأرض لإيصال هذه الرسالة إلى كافة شعوب البسيطة مؤطرة بقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ (النحل:125). وليس باستخدام العنف في غير مواضعه الشرعية، فالذين يفعلون ذلك يتحملون المسؤولية أمام الله تعالى في اتخاذهم طريقاً غير شرعي لإيصال الرسالة التي ذكرتها، مما يولد ردود فعل ضد هذا الدين وإظهاره بغير الصورة التي هو عليها، وبالتالي يعطلون سبل إقبال الناس في العالم على الإسلام الذي يحمل لهم الهناءة والرخاء.

تقنين العنف المبدئي

أقصد بهذا العنوان أن توضع نصوص قانونية تشرع استخدام العنف انطلاقاً من المبدأ العقدي. ضمن هذا المفهوم ممكن أن نشير إلى العقائد التالية:-

1- الشيوعية:

وهي التي حكمت الاتحاد السوفيتي وبعض دول أوربا الشرقية زهاء سبعين عاماً ولا تزال تحكم الصين وكوريا الشمالية وكوبا إلى وقتنا الحاضر.

لقد وضعت الأنظمة الشيوعية قوانين جائرة وظالمة تشرع استخدام جميع أنواع العنف، وإلى آخر مداه المتخيل عقلاً ضد كل من تشتم منه رائحة المعارضة. وكان من ضحايا تلك القوانين ملايين المسلمين الذين قتلهم الشيوعيون أو عذبوهم أشد أنواع التعذيب وأنكله أو شردوهم إلى سيبريا حيث لاقوا حتفهم بسبب البرد والجوع أو لاذوا بالفرار على وجوههم حيث مات أكثرهم في شعاب الجبال ووديانها، وقليل جداً منهم من بقي على قيد الحياة. كل ذلك نفذه الشيوعيون في إطار القوانين التي وضعوها فعاثوا بواسطتها في الأرض فساداً وإفساداً.

2- الاستعمار:

لقد لاقى العالم الإسلامي أشد أنواع الاضطهاد عبر قرون طويلة، واستخدمت ضده أبشع ألوان العنف. لقد هجم المستعمرون متمثلون في دول تحمل في أعماقها الحقـــد الصـليبي على بـلاد الإســلام فاحتـلوا بقــاعه ونـهبوا ثرواتـه وقتلوا أهـله أو سـجنوهم أو عـذبوهم أو شـردوهم أو انتهكـوا أعراضـهم أو اســـترقوهم. لقـد

اشـــتركت في هذه الحملات المدعومة بالقــوانين الرســـمية كثير من دول أوربا من مثل إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانية والبرتغال وإسبانيا واليونان ويوغسلافيا. وفي أيامنا المعاصرة تستمر الحملات العسكرية المشبعة بالحقد الصليبي ضد العالم الإسلامي إما بشكل مباشر أو من خلال أحلاف الناتو أو من خلال مؤسسات دولية، وذلك تحت ظل قوانين محاربة الإرهاب. لقد فعلت هذه الدول مجتمعة في أفغانستان وفي العراق ما لم يفعله الأوروبيون الأوائل. إن صفحات التاريخ لتخجل أن تكتب على سطورها ما فعله هؤلاء الصـــليبيون في المســـلمين في هاتين الدولتين من مجازر وحشـــية وممارسات همجية لا يكاد يصدقها عقل لولا أنها قد وثقت بصور الفيديو وشهود العيان.

لقد ضاقت هذه الدول المدفوعة بروح صليبية ذرعاً بالاسم المجرد للإسلام فضلاً عن أهله ومعتنقيه، فأحدثوا في البوسنة والهرسك وكوسوفا وتيمور الشرقية والفلبين من القتل الشنيع للمسلمين والتدمير المريع لممتلكاتهم مالا يمكن أن تحدثه حتى الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية في الغابات النائية.

هذه الدول، وتحت ظل القانون وضمن نصوصه، استخدمت جميع أنواع الأسلحة الفتاكة والمحرمة دولياً، حسب زعمهم، من مثل القنابل النيوترونية والقنابل النووية المحدودة والقنابل العنقودية والقنابل الحارقة (النابالم) فضلاً عن القنابل ذات التدمير الشامل.. ثم هي لم توفر بشراً ولا مسجداً ولا مدرسة ولا مستشفى ولا دور رعاية مســـنين ولا روضات أطفال ولا أسواق مكتظة بالمتسوقين ولا منازل آمنين ولا.. ولا.. لقد دمروا كل شيء، نعم كل شيء، بحيث لم يعد من الممكن أن تســـتوعب معاني كلمة العنف ما قاموا به وفعلوه، فقد اتسع الخرق فيها على الراقع!!. لقد

دفعت شعوب الإسلام برجالها ونسائها وأطفالها ورضعها ضريبة الانتماء العقدي لدينهم من خلال تعرضهم مجتمعين لهذا العنف الصليبي الحاقد المنطلق من أحقاد تاريخية والمقنن بنصوص دستورية.

3 – الصهيونية العالمية:

لقد تمثل تقنين العنف المبدئي فيما يخص الصهيونية العالمية من خلال اصطناع الكيان اليهودي في فلسطين مدعوماً بيهود العالم وبالدول الأوروبية والولايات المتحدة. قام هذا الكيان في عام 1948م على أنقاض أشلاء جثث الفلسطينيين. واستخدم العنف العنصري تحت شعار «شعب الله المختار»، وأن الشعوب الأخرى ما خلقت إلا لخدمة اليهود. لقد كرس هذا الكيان وجوده بعد حرب 67 حيث احتل الضفة الغربية وغزة وسيناء والجولان. لم يستكن الشعب الفلسطيني المسلم لسطوة ذلك الكيان فانتفض عليه يريد حريته ويروم استقلاله، فانقضت عليه آلات التصفية اليهودية الحاقدة مستخدمة أقصى درجات العنف بغية إخضاعه وتشريده، فراحت، وبشكل يومي، تقتل وتعتقل وتعذب الرجال والشباب والنساء والأطفال وتهدم البيوت على رؤوس ساكنيها وتجرف الأراضي وتقطع المياه والكهرباء وتحكم الحصار وتغلق المعابر وتقيم الجدار العنصري الذي حول الضفة الغربية إلى معتقل كبير، واستخدمت وسائل التجويع والترهيب والقمع بكل أشكاله وأصنافه، واستهدفت هذا الشعب المنتفض بالطائرات والدبابات والمدرعات وأنواع القنابل العنقودية والحارقة والمدمرة، قصفاً ورمياً وإهلاكاً وعصفاً.

4– بعض الأنظمة العربية والإسلامية:

لقد ضاقت بعض الأنظمة العربية والإسلامية ذرعاً بالإسلام والداعين إلى الاحتكام إلى تشريعاته وأنظمته، وما ذلك إلا تحقيقاً وتنفيذاً وإرضاءً لأسيادهم. إن أول ما فعلوه أنهم صاغوا دساتير غير إسلامية، ومن خلال القوانين المنبثقة عنها ساموا الدعاة إلى الله سوء العذاب فاعتقلوهم وعذبوهم أو قتلوهم، ولم يوفروا النساء في ذلك بل ألحقوهم بالرجال. وأصبحت الدعوة إلى الله تعالى في بعض تلك البلاد جريمة يعاقب عليها القانون، وأصبح ارتداء الحجاب انتهاكاً للفضيلة يحرمه الدستور!!

لقد أحكمت تلك الأنظمة رقابتها على المساجد والمدارس والمعاهد والجامعات والشركات والمؤسسات في قطاعيها العام والخاص، ودست جواسيسها وبثت عيونها في كل مكان فأحالت حياة شعوبها المسلمة إلى أشبه ما يكون بالجحيم، وساقتهم إلى أوضاع لا تطاق. إنه العنف المقنن الذي تبيحه الدساتير وتحمي فاعليه.

5- الإسلام:

هو دين الله الذي ارتضاه لعباده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران:19)، لذا فإنه مرتبط بالعدل حكماً، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:90)، بهذا الاعتبار فإن العنف المصاحب لتطبيق أحكام الله تعالى هو عنف مشروع يحقق العدل ويؤكد الرفاهية. وبما أن دين الإسلام هو دين الوسطية، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:143)، فهذا يعني أن العنف المشروع من خلال النصوص القرآنية

والنبوية هو الوسطية الحقة (وقد أشرت إلى ذلك سابقاً). وقد جاءت الشريعة بما يحقق مصالح العباد ويحفظها في كليات خمس هي: -

أ- مصلحة حفظ الدين، وشرع لها من حيث الوجود الشهادتين ومن حيث العدم الجهاد وإقامة حد الردة.

ب- مصلحة حفظ النفس، وشرع لها من حيث الوجود أصل الطعام والشراب، ومن حيث العدم حد القصاص.

ج- مصلحة حفظ النسل، وشرع لها من حيث الوجود النكاح، ومن حيث العدم حد الزنا وحد القذف.

د- مصلحة حفظ العقل، وشرع لها من حيث الوجود الطعام والشراب، ومن حيث العدم حد شرب الخمر.

هـ- مصلحة حفظ المال، وشرع له من حيث الوجود المعاملات المالية المشروعة، ومن حيث العدم حد السرقة.

وبشكل عام، فإن حدود الوجود والعدم هي ما ذكره الشاطبي في «الموافقات» بقوله: «والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك بمراعاتها من جانب الوجود، والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم»[1].

نلاحظ مما ذكرناه أن إقامة المصالح الشرعية من حيث مراعاتها من جانب العدم يتحقق بإقامة الجهاد والحدود التي ذكرتها، وهي حدود عنيفة بحد ذاتها، إلا

(1) الشاطبي، الموافقات، 8/2.

أن هذا العنف محمود ومطلوب لأنه يحقق العدالة ويرفع الظلم، وهو الذي يحقق الوسطية. وبالتالي فإن تعطيل الجهاد وتعطيل إقامة الحدود يمثل تطرفاً وخروجاً عن الوسطية وانحرافاً نحو الغلو؛ لأنه يعرقل ويبدد تحقيق المصالح الشرعية التي أرادها الله تعالى لعباده بإنزال كتابه وبأمره باتباع نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ (النساء:80).

وقد أوضح ذلك الإمام ابن القيم، رحمه الله تعالى، في «أعلام الموقعين» بقوله: «إن الشريعة مبناها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل»[1].

إن تعطيل الجهاد قد أدى إلى انطلاق قوى الشر على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية، وأفضى إلى انتشار العنف في أنحاء المعمورة وإحداث خلل فادح في توازن الأمن الدولي. إن هذه النتيجة تعتبر طبيعية في ظل كبت قوى الحق والعدل، التي لن تكون فاعلة على هذه الأرض إلا من خلال انبعاثها من أحكام الإسلام وتعاليمه.

(1) ابن القيم، أعلام الموقعين، 3/3.

أنواع العنف

هناك زوايا عديدة ينظر من خلالها لتحديد أنواع العنف، وقد وجدت أن أنسبها التصنيف التالي: -

1- العنف الفردي:

وهو عنف متعدد الجوانب، وما يخصنا منه الجانب السياسي. لقد انبرى كثير من الأفراد لتحقيق أهدافهم السياسة إلى استخدام العنف الفردي. لابد أن نلاحظ أن هذا العنف قد ينتهي بالقضاء على صاحبه، وبالتالي فإن هناك حالة من الاكتناز الشعوري بوقوع الظلم الفادح، الذي يستأهل التضحية بالنفس للحد منه أو القضاء عليه، ويدخل في ذلك العمليات الاستشهادية.. إن أعداء الإسلام يوصمون هذه العمليات بالإرهاب، وهذه مغالطة كبرى، إذ كيف يكون الوقوف ضد الاحتلال الذي مارس جميع أنواع العنف إرهاباً ولا يكون الاحتلال بحد ذاته هو الإرهاب الحقيقي. إن العنف الفردي الذي يقاوم قوى الاحتلال هو عنف مشروع ومطلوب وينبغي تأييده ودعمه ومآزرته بكافة الوسائل الصحيحة، وتقع مسؤولية ذلك على جميع المناصرين للحق سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو دولاً، وإن عدم تأييده أو مباشرة عرقلته أو الوقوف ضده هو إقرار ومؤازرة للظلم والجور.

2- العنف الحزبي:

وهو العنف الذي تمارسه الأحزاب بغية الوصول إلى تحقيق أهدافها السياسية، ويدخل في ذلك الاغتيالات والتفجيرات وتدمير الممتلكات وإطلاق التهديدات، كل ذلك أو بعضه.

إن هذا العنف ينظر إليه من وجهين: فإن كان بقصد مقاومة المحتل والتصدي له فهو مشروع، بشرط أن يكون محكوماً بضوابط الشرع. وإن كان بقصد مجرد إرواء الغليل من الأنظمة الحاكمة وكان مما يعرض حياة الأبرياء وممتلكاتهم للخطر وبدون مبررات مشروعة فهو عنف مرفوض، ذلك أنه يؤدي إلى ردود فعل شديدة من قبل تلك الأنظمة، وفي الأغلب ينطوي في ردود الفعل تلك كثير من الظلم والعنت والجور يدفع الأبرياء ضريبته.

3- العنف الرسمي:

وهو العنف الذي تقوم به بعض الأنظمة الحاكمة ضد شعوبها فتقوم بمعاقبة الناس على الكلمة وأخذهم بالظنة، ويصبح كل إنسان يشك بأخيه، فتنهار النفوس، وتتقوض الأواصر، وتتقطع الأرحام. إن العنف الرسمي لا تقوى الشعوب على مقاومته إلا في حالات نادرة، فهو يعتمد على قواته المسلحة وشرطته ومخابراته وأجهزته الأمنية المنوعة، ويفتتح السجون الكثيرة، ويعذب المعتقلين الأبرياء، ويعلق المشانق، ويعدم بالرصاص، كل ذلك بغير محاكمة عادلة أو حتى جائرة، بحجة الأحكام العرفية، وكل من لم يقف معها ويصفق لها تلحقه بالمعارضة السياسية، تلك المعارضة التي لا يجوز أن يكون لها وجود أصلاً في أعراف تلك الأنظمة. لقد شمل العنف الرسمي كثيراً من دول العالم، ومن أبرزها الأنظمة الشمولية والديكتاتورية وذات الواجهات الديمقراطية أيضاً !!

4- العنف الدولي والأممي:

وهو العنف الذي تمارسه دولة أو أمة على دول وأمم أخرى، كما تفعل بعض الدول الآن، وكما فعل الاتحاد السوفييتي السابق. هذا العنف مرفوض بكل أوجهه، فهو عنف القوي لابتزاز خيرات الضعيف وقهره والقضاء عليه.

إنه عنف لأجل الاســـتعمار ولأجل نهب الثروات ومن أبرزها النفط. إن على جميع شعوب العالم أن تقف ضد هذا العنف وأن تقاومه وتتصدى له، لأنه يصادر حرياتها، ويسرق خيراتها، ويبتز اقتصادياتها، ويتسرب إلى خصوصياتها. لقد استطاعت تلك الدول الغاشمة وباستعمال جميع وسائل الضغط أن توظف الأمم المتحدة لتحقيق مآربها وأضفت عليها الألقاب الخداعة من مثل المشروعية الدولية وما شابه، وما ذلك إلا لأجل تمرير مخططاتها الإجرامية. وإن من السخرية حقاً أن تدعي تلك الدول أنها ما تفعل هذه الجرائم المنكرة إلا لمحاربة الإرهاب!!

5- العنف العنصري (العرقي) والمذهبي:

وهو عنف حاصل وواقع في كثير من بلاد العالم، وإن من أهم أسبابه التعصب الأعمى الذي لا يستند إلى حق ولا إلى دليل. إنه تعصب ممقوت، وبالتالي فإن العنف المترتب عليه ينبغي التصدي له وإيقافه، ذلك أنه يؤدي إلى سفك الدماء وترميل النســـاء وتيتيم الأطفال وإتلاف الأمـــوال، ثم ربما لا ينتصر أحد على أحد. إن القوى الاستعمارية قد ترى تحقيقاً لبعض مصالحها أن تذكي روح العنف العنصري والمذهبي لتتمكن من وضع قدمها في أمكنة لم تصـــل إليها كما يحصل الآن في دارفور أو لتتمكن من تثبيت قدمها بشكل دائم كما يحصل الآن في العراق وأفغانستان. إن إيقاف هذا العنف لايتم إلا من خلال العقلاء من كافة الأطراف، فهم وحدهم الذين تعقد عليهم الآمال بهذا الخصوص.

أسباب العنف

لا يأتي العنف السياسي من فراغ، بل هو محصلة تمازج عوامل عدة، تتفاعل مع بعضها بعضاً بطريقة تصاعدية ينجم عنها في نهاية المطاف تصرفات تأخذ طابع العنف، إنها أشبه ما تكون باصطراع المواد وانضغاطها في جوف الأرض ثم تنفجر على شكل براكين من فوهات فوقية. إن من أبرز تلك العوامل عوامل دينية وعقدية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وأمنية وقانونية وإدارية وتاريخية وجغرافية وبيئية وعسكرية وعرقية، وغيرها من العوامل الأخرى.. من مجمل هذه العوامل أو من بعضها ينجم العنف، على تفاوت في تأثير كل عامل منها على مجمل الحركة العنيفة التي أفرزتها المحصلة العامة لتلك العوامل، كما أن هذه العوامل لها تأثيرات متفاوتة على العنف الناجم عنها بحسب الوسط التي تعمل فيه، سواء كان الوسط فرداً أو حزباً أو شعباً أو حكومة أو جيشاً أو شرطة أو مخابرات أو غير ذلك.

تلك زاوية ينظر من خلالها إلى أسباب العنف. وهناك زاوية أخرى يمكننا أن نشير إليها أيضاً، وهي زاوية مهمة جداً لا تقل في أهميتها عن الزاوية الأولى. إنها زاوية الأسباب المباشرة لحدوث العنف، ومن أهمها:-

1 – مصادرة الحريات وكبت الكلمة، مسموعة أو مقروءة أو مرئية.

2 – الاستبداد السياسي وممارسة الدكتاتورية وتغييب الشورى .

3 – الظلم (باسم القانون أو باسم غيره) ومصادرة حقوق الإنسان.

4 – تقريب أصحاب النفوذ والجاه وإقصاء أهل الخبرة والعلم.

5 – التضييق المعيشي.

6 – انتهاك العقائد والخصوصيات.

7 – استغلال الصلاحيات بصورة سلبية.

8 – الاعتداء على الذات (سواء كانت فرداً أو جماعة أو شعباً). ويدخل في ذلك احتلال الدول لغيرها.

إن العنف الناجم من مقاومة ما يدخل في مضمون تلك العوامل الثمانية هو عنف مبرر في الجملة، ويتناسب مع الفطرة الإنسانية، ويتساير مع التشريعات الإلهية.

ردود الأفعال على العنف:

باعتبار العنف فعلاً، فإن لكل فعل رد فعل معاكس له في الاتجاه، ولكن في حالتنا هذه قد لا يكون (وهذه في أغلب الحالات) مساوياً له في المقدار. إن الفرد لا يستطيع إذا اعتدت عليه الدولة أن يرد عليها بنفس المقدار، بل ربما لا يستطيع أن يرد عليها مطلقاً، خاصة إذا ألقت به في غياهب السجون حيث لا يعلم أحد من البشر أين هو!!

إن ردود الأفعال على العنف تتفاوت، وكل يعبر عنها بقدر إمكاناته وبحسب ظروفه، ولكن في كل الأحوال فالعنف يرد عليه بعنف، وهكذا تتفاقم أعمال العنف وتكثر وتستشري. ولكننا نفرق بين العنفين. فالعنف الأول وهو العنف البادىء فإنه يصنف في خانة الظلم، والعنف الثاني المضاد فإنه يصنف في خانة استرداد الحق. لذا، فإن على الأطراف غير المشاركة في هذا الصراع، الذي هو بين عنف الظالم وعنف مسترد الحق، أن تجتمع لتأخذ على يد الظالم ليوقف عنفه، و في نفس الوقت تؤيد وتدعم العنف الذي يقوم به مسترد الحق، وإلا فإنها راضية ضمناً بهذا الذي يحدث أمام

ناظريها. ولنأخذ فلسطين مثالاً على ذلك، فإن اليهود اغتصبوا أرض فلسطين اغتصاباً عام 1947م (عام التقسيم) وشردوا أهلها وقتلوهم قتلاً جماعياً (مذبحة دير ياسين وكفر قاسم وغيرها) وصادروا أراضيهم وبياراتهم ومساكنهم وسائر ممتلكاتهم، مستخدمين في ذلك أبشع وسائل العنف، ثم إنهم أعادوا ذلك عام 1967م فاستكملوا احتلال فلسطين بما فيها القدس ووضعوا أيديهم على المسجد الأقصى المبارك، وساموا الشعب الفلسطيني الويلات وأحلوا به الدمار والشنار مستخدمين الحديد والنار. لم يستكن الشعب الفلسطيني لهذا الذي حل به فقابل العنف بالعنف دفاعاً عن نفسه واسترداداً لأرضه وحقوقه. فماذا كان ينبغي على العالم ان يفعل إزاء هذا الصراع المتأجج؟!

لقد وقفت الدول الأوروبية وأمريكا مع الظالم اليهودي فدعمته مالياً وعسكرياً وسياسياً، ظهوراً من غير مواربة، ووقفت دول أخرى معه في الباطن ولم تستعلن، ووقفت دول أخرى موقف المتفرج، وتوزعت الدول العربية والإسلامية بين هذه المواقف الثلاث!!

لقد اتسم رد الفعل الفلسطيني بعنف هو أقل بكثير من عنف اليهودي المعتدي، وذلك لتفاوت الإمكانات. فالشعب الفلسطيني شعب أعزل يقاوم الرصاص اليهودي بصدره المكشوف وبالحجارة !! أفلا يحق له أن يفجر نفسه ليدفع كيد الصائل ويرد هجمة الوحش الكاسر؟!! مثل هذا المثال ينسحب كذلك على كافة القوى في العالم التي تقاوم عنف المحتل بعنف آخر.

من آثار العنف

لكل نوع من أنواع العنف، إن كان فردياً أو حزبياً أو شعبياً أو دولياً، آثار

بحسبه، غير أن دائرة هذه الآثار تتسع باتساع شدته ورقعته. وفي كل الأحوال فإن آثار العنف لا تخرج عن دائرتين، الأولى مادية والثانية نفسية. فأما الآثار المادية فتحدث فوراً باعتبارها ناتجاً طبيعياً من استخدام العنف، ومن الممكن إزالتها بعد فترة وجيزة من وقوعه. لقد تمكنت كثير من الدول التي وقع عليها العدوان من إزالة آثاره المادية، كما حصل للدول التي خاضت الحرب العالمية الثانية أو حرب الكوريتين أو العدوان الثلاثي على مصر أو الحرب الأهلية التي امتدت سنوات في لبنان أو غيرها. أما الآثار النفسية فتأخذ عمقها الزمني لفترة طويلة، وقد تتجاوز الأجيال بل القرون أحياناً. إن الآثار النفسية تترك بصماتها على كافة نواحي حركة المجتمع، ابتداءً من الجانب السياسي مروراً بالجوانب الاقتصادية والأمنية والثقافية وغيرها. إنها تترك ندباً في قلوب الأفراد الذين بهم تصاغ كافة الجوانب المذكورة.

إن معركة كمعركة بدر مثلاً، التي تجلت فيها المواجهة العنفية في أشد حالاتها، وهي الاقتتال بين المسلمين والمشركين ومشاركة الملائكة وتسخير الخليقة، تلك المعركة التي وقعت قبل خمسة عشر قرناً، لا تزال تترك آثارها النفسية إلى الآن. إن المسلمين في شتى بقاع الأرض وبكافة انتماءاتهم العرقية ومواقعهم الجغرافية لا يزالون يستلهمون من تلك المعركة معاني العزة الرسالية والاستعلاء الإيماني بما يجعلهم يجددون في كل عام عزائمهم على مقارعة المعتدين على الله تعالى ثم على أخذهم بالأسباب. هذا الاستلهام ترك ولا يزال يترك آثاره الحركية الواضحة في جميع الجوانب المؤثرة على مسيرة المجتمعات الإسلامية. إن روح معركة بدر تسري في وجدان كل مسلم غيور على دينه حريص على طاعة ربه، وهي التي لها الحظ الأوفى

في تأجيج ما جرى من جهاد في شتى بقاع الأرض.

إن جذور الآثار النفسية للعنف تتشعب وتمتد كلما مر الزمان، وهي إما إيجابية (كالمثل الذي ضربته بغزوة بدر) وإما سلبية كالعنف الذي مارسته الدول الشيوعية والرأسمالية. وإذا كان بالإمكان السيطرة على آثار العنف أو إنهائه فإنه ليس بالإمكان السيطرة على آثاره ونتائجه، خاصة وأنها قد تتعدى كثيراً ما كان يعتقد أنها ستقف عنده، تماماً مثلما أن دولة تستطيع أن تختار شن حرب ما لكنها قد لا تستطيع أن تختار كيفية الخروج منها.

إن العنف من الدول قد يقود إلى ردود أفعال تتمثل في المظاهرات والإضرابات واختراق القوانين، كما قد يؤدي إلى إتلاف مرافق حيوية وخدماتية، مما يترك آثاراً ذات مدلولات مهمة في البناء المجتمعي والنظام السياسي .

وقد تستغل بعض الدول العنف وقد تخطط له بقصد تبرير عمل ما، مدبر مسبقاً، وتدعي أنه مقابل للعنف الذي حصل عليها، وخير مثل على ذلك استغلال أحداث 11 سبتمبر 2001م.. لقد اتخذت الولايات المتحدة من تلك الأحداث ذريعة لشن حروب ضروس على الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم، وكان من أبرزها احتلال أفغانستان والعراق. إن تلك الأحداث تركت آثاراً خطيرة في مجمل مسيرة العمل الإسلامي في بقاع المعمورة، حيث ضيق على الإسلاميين وأنشطتهم ومؤسساتهم وحركاتهم باسم محاربة الإرهاب، وقد شمل ذلك التضييق فتح المعتقلات الرهيبة كمعتقل غوانتنامو ومعتقل أبوغريب ومعتقلات سرية في دول أوروبية وسواها كثير، كما شمل أيضاً اعتقال كثير من الإسلاميين ومصادرة أموالهم وإغلاق

مؤسساتهم، كما شمل شن حملة شعواء على كافة الأعمال الخيرية الإسلامية في مختلف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية. ولا تزال آثار عنف تلك الأحداث تتفاعل بشدة ويمتد أوارها عبر القارات.

- من يتصدى للعنف وكيف؟

إنه سؤال وجيه.. ولكننا نقول: إن الباطل مهما استمر وانتشر فإن للحق أبواباً أخرى يستطيع النفاذ منها إلى ساحات التصدي. وأشير هنا إلى بعض من تلك الأبواب:-

- الأعمال الجهادية، كما هو حاصل في عدد من ساحات الجهاد حالياً.

- حركة الجماهير (كالانتفاضات الفلسطينية أو كتلك التي أطاحت بشاوسيسكو في رومانيا أو التي أطاحت بالشاه في إيران) .

- أنشطة النقابات والمنتديات والروابط الطلابية .

- وسائل الإعلام المنوعة كالفضائيات والصحافة والمجلات والأشرطة وسواها.

- الأحزاب والتجمعات المنظمة ومؤسسات المجتمع المدني ومنظمات حقوق الإنسان.

- مراكز البحوث والترجمة والنشر.

تلك هي بعض بوابات التصدي للعنف، الذي تقوده مجموعات الاستكبار العالمي.

إن هذا التصدي للعنف الاستكباري لابد له من رجال متميزين على درجة كبيرة

من الوعي ومقدرة فائقة على الصبر والتحدي.

العنف بين الديكتاتورية والديمقراطية:

لا تتخلف الأنظمة الديكتاتورية ولا التي تدعي الديمقراطية عن ممارسة شتى أنواع العنف في كافة أبعاده، وخاصة البعد السياسي له، غير أن كل نظام يصطبغه بلونه الخاص به .

ففي الأنظمة الديكتاتورية تتقلص مساحة الحرية إلى حد كبير، بحيث لا تكون في النهاية مقتصرة إلا على أفراد النظام الحاكم – سواء كانت ديكتاتورية النظام الحاكم فردية أو حزبية –. إن هذه الأنظمة تلجأ إلى تأميم الإعلام وإلى صياغة مناهج التعليم وفق ما يخدم ديكتاتوريتها. وبتوظيف هذه التوجهين تحقق مرادها على الطريقة الفرعونية عندما قال مخاطباً شعبه: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (غافر:29).

إن الصياغة الواقعية لهذين التوجهين تتمثل في اتباع نفس أسلوب فرعون في موقفه ممن عارضه عندما نفخ مستشاروه في روعه موحين له بالخطر الداهم الذي يمثله موسى، عليه السلام، على نظامه الطاغوتي: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ (الأعراف:127)، أي البطش بالمعارضين باستخدام أشد أنواع العنف، وهذا دأب أصيل في النظام الديكتاتوري وليس أمراً طارئاً، إذ كان فرعون قد أمر من قبل ذلك بالتمثيل بالسحرة الذين آمنوا لموسى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى

جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾ (طه:71)، وكان من قبل ذلك بعشرات السنين قد أمر، عندما نما إليه خبر احتمال أن تلد امرأة من بني إسرائيل من يقوض عرشه، بقتل كل وليد ذكر منهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾ (البقرة:49).

يتبين لنا مما ذكرت أن ممارسة العنف بأقسى صوره هي حالة لصيقة بالأنظمة الديكتاتورية لا تنفك عنها بحال من الأحوال. ولذلك فإنه تحت طائلة العقاب العنيف بقانون أو بغير قانون فإن على جميع أفراد الشعب أن لا تنطلق ألسنتهم ولا تخط أيديهم إلا بما يرضي النظام الحاكم.

إن تأميم وسائل الإعلام يكفل للنظام السلطوي الحاكم تحقيق هذا الهدف، وإن صياغة مناهج التعليم وفق ما يخدمه يحقق له أن تتربى الأجيال على هذا الخضوع، ويصبح الخنوع طبعاً متأصلاً فيها، وفي كل الأحوال يصبح الخوف من معارضته معشعشاً في قلوب الجماهير ومهيمناً على أقوالهم وتصرفاتهم.

إن هذه الأنظمة الديكتاتورية الشمولية لا تتردد أبداً في تصفية أو تعذيب أقرب الناس إليها، وإن كان من ضمن منظومتها، إن وجدت فيه أدنى تردد في إظهار مراسم الولاء لها أو التباطؤ في تنفيذ ما يناط به من مهام ومسؤوليات، وخاصة إذا كانت ذات طابع أمني. كما أنها تصطنع المؤامرات التي تدعي أنها قد حيكت ضدها لتنجز تصفية معارضيها بأسرع وقت، سواء كانوا من أفراد الشعب أو كانوا في السلك العسكري أو الأمني.

ولتحقيق أقصى درجات الضبط الأمني لنظامها تحيط، هذه الأنظمة الديكتاتورية

الشمولية، نفسها بأسورة من المؤسسات الأمنية الباطشة، كل منها له مسمى وعليه مسؤوليات تحدد له، وتقع تحت أمرته مجموعة من الأجهزة المخابراتية الفاعلة. وإنك لتجد كثيراً من أفراد الشعب مطلوبين لهذه الأجهزة، وكلاً منهم محتار في أمره، ولا يدري من أي منها سيأتيه الموت الزؤام !!.

إن هذا العنف الديكتاتوري يستفرغ جميع طاقات المقاومة من نفسيات الجماهير ويجعلهم عبيداً للنظام الحاكم، كما قال موسى، عليه السلام، لفرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الشعراء:22).

إن عنف الأنظمة الديكتاتورية لا يقف عند حد الذين أوقع عليهم اتهاماته، بل تتجاوزهم لتشمل زوجاتهم وأولادهم وأقربائهم بل ومعارفهم أيضاً، كما أن سفاراتهم في الخارج تقوم بدور التعقب الأمني لرعاياهم في تلك الدول، وقد لا تتورع عن مباشرة اغتيالهم أو خطفهم ثم شحنهم بطرق سرية إلى بلادهم لتتلقاهم هناك قوافل الجزارين والجلادين، وفي بعض الحالات تمنحهم الأمان وتستدرجهم للرجوع إلى أوطانهم ثم تعتقلهم لتدخلهم في أتون سجونها الرهيبة، فما يعلم أحد غير الله في أي واد يتم إهلاكهم.

وفي بعض الدول الدكتاتورية يقوم النظام الحاكم بصب جام غضبه على شعبه بشكل عشوائي، فتقوم دباباته وطائراته بقصف مدن بكاملها وتهديم منازلها على رؤوس سكانها، يفعل ذلك دون أن يرف له جفن!! ثم يقوم بإخفاء الأعداد الحقيقية لضحاياه من الرجال والنساء والأطفال في ظل تكتيم إعلامي شامل.

وفي بعض الأنظمة الديكتاتورية تقوم الأجهزة الأمنية بإخراج المعتقلين مجموعات

مجموعات وتقوم بإعدامهم بالجملة دون محاكمة ثم تمحو آثارهم بوضعهم في قبور جماعية.

وأما الأنظمة التي تدعي الديمقراطية، وبالاستقراء والتتبع، فإن فيها من العنف في إطار البعد السياسي ما في الأنظمة الديكتاتورية، غير أنها تدعي أنها ما تفعل ذلك إلا في مظلة القانون، وقد تبلغ الجرأة ببعضها أن تتجاهر بأنها تفعل ذلك بدون أي غطاء قانوني. وعندما نريد التدليل على ذلك بذكر أسماء دول فإن الحيرة تتملكنا، إذ تذكر من وتدع من؟

إن الإسلاميين بشكل أخص هم أول من يدفع ضريبة عنف تلك الدول التي تدعي الديمقراطية. وبصورة عامة فإن تلك الدول تخلع لباسها الديمقراطي وتلقي به جانباً عندما يتعلق الأمر بأي قضية تتعلق بالإسلام. إنها تمارس العنف المتطرف جداً ضد المسلمين سواء في سجونها أو في احتلالها لبلادهم وهجماتها على ديارهم وسفكها لدمائهم وانتهاكها لأعراضهم وتدميرها لممتلكاتهم. وعندما تحولت روسيا من النظام الشيوعي (أبان الاتحاد السوفيتي) إلى النظام الديمقراطي لم يغير ذلك من طبيعة ممارستها الوحشية شيئاً، فها هي في ظل الديمقراطية تمارس العنف القاتل ضد الشيشان كما كانت تمارسه في ظل الشيوعية الديكتاتورية في أفغانستان.

إن جميع أجهزة الدولة الأمنية من جيش وشرطة ومخابرات وحرس خاص وأمن مركزي وغيرها من الوحدات والمسميات، تستخدم العنف الشديد وتمارسه في ظل الأنظمة الديمقراطية بنفس مستوى الممارسة في الأنظمة الشمولية، كما أنها تقمع الشعب إذا خرجت مظاهراته أو أضربت نقاباته بنفس مستوى القمع الديكتاتوري،

سواء بسواء.

غير أن العنف في الأنظمة الديمقراطية لا يمارس فقط من قبل الأنظمة الحاكمة، بل تمارسه الأحزاب أيضاً إزاء بعضها بعضاً، وقد يصل هذا النوع من العنف بينها إلى مستوى المواجهات الجماهيرية والتصفيات الجسدية. وأحياناً يمارس النواب العنف ضد بعضهم بعضاً وهم تحت قبة البرلمان!!

نخلص من ذلك بنتيجة مفادها أن العنف، ما لم يكن منضبطاً بالحق والعدل – وهذا لا يكون واقعياً إلا في ظل الإسلام – فإنه سيبقى سمة ملتصقة بالأنظمة الحاكمة تمارسه بحسب قدراتها والإمكانات المتاحة بين يديها، بغض النظر عن طبيعة مسمى حكمها، إن كان ديكتاتورياً أو ديمقراطياً أو سوى ذلك.

وإنه من السخرية حقاً أن الولايات المتحدة الأمريكية (الديمقراطية)، تدعي أنها تريد نشر الديمقراطية في العالم حيث تزعم أنها ستحقق للشعوب الحرية والأمن والرخاء، فإذا بها تستخدم جيوشها الجرارة لإبادة تلك الشعوب التي تريد أن تحقق فيها تلك الدعاوى العريضة!!

العنف والمخاضات الدولية:

امتدت الحرب الباردة من بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى حين سقوط الاتحاد السوفيتي وتفتته إلى دول مستقلة. حصل بهذا السقوط خلل كبير في التوازن الدولي، لكنه استقر لصالح الهيمنة الأمريكية الشاملة على المسارات السياسية الدولية. غير أن الاستقطاب الأحادي الأمريكي حفز دولاً أخرى على أن يكون لها موضع قدم في السياسة الدولية.

وقد برزت دول مثل الصين كقوة اقتصادية وعسكرية وكوريا الشمالية كقوة نووية وكذا الباكستان والهند كقوتين نوويتين فضلاً عن دول أخرى أصبح لها شأن مؤثر كإيران، كما اتسع نطاق نفوذ الحلف الأطلسي بعد أن أصبح عدد الدول المنتسبة إليه ستة وعشرون دولة.

لقد خرجت روسيا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي كديك فقد ريشه نتفاً وخارت قواه قسراً مما أفقدها دورها كمؤثر رئيس في الوضع الدولي. غير أن الطفرة الهائلة في أسعار النفط والغاز قد أعادت لروسيا مكانتها الاقتصادية، كما أنها حظيت بالدعم الأمريكي والأوروبي في حربها ضد الشيشان، وذلك لاتحاد رؤاهما في محاربة الإسلام مستظلين بدعواهم محاربة الإرهاب.

لقد تغيرت معالم الصراع على مستوى الخريطة العالمية بما أفضى مخاضه إلى حالات عديدة من العنف الهائل، تتناسب قوة وارتفاع واندفاع أمواجها من حجم التبدلات والمتغيرات والتكتلات التي حصلت، ولا يزال عنف هذا المخاض الأول مستمراً. ويمكننا أن نجمل عدة أسباب رئيسة لذلك على النحو التالي:-

1 - بروز الصحوة الإسلامية على المستوى العالمي.
2 - الجهاد في أفغانستان والذي كان سبباً رئيساً في الانهيار الشيوعي.
3 - تفكيك الاتحاد السوفيتي.
4 - قيام دولة طالبان في أفغانستان.
5 - أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 م.
6 - الانتفاضات الفلسطينية المتتالية والتي تمحورت شعاراتها - في الأغلب -

حول الإسلام.

لقد صاحب العنف تلك الأحداث مجتمعة، لكننا نلاحظ أن القاسم المشترك في ذلك كان هو الحرب على الإسلام. ولقد انبرى عدد كبير من الكتاب والسياسيين والاقتصاديين الغربيين ومراكز الدراسات والبحوث في أوروبا وأمريكا ليقولوا وليحددوا بصريح العبارة أن الصراع الدولي قائم الآن على التضاد بين محورين: الإسلام (هكذا في العموم بدون أن تمثله دولة) وبين الغرب (متمثلاً بالاتحاد الأوروبي وأمريكا وروسيا واليابان وأستراليا ودول أخرى تدور في فلكهم).

وفي مقالة بعنوان: «الصدام القادم بين الغرب والمسلمين» نشرت في 30 أكتوبر 2006م، أشار الكاتب إلى «عزم مجاميع حزبية وسياسية وإعلامية بريطانية على مواجهة سلوك وعادات وتقاليد الجالية المسلمة في بريطانيا باعتبارها حالة انفصالية»[1]. ويتفاقم مثل ذلك التحرك في معظم الدول الأوروبية وأمريكا، مما يهدد بتطور تلك المواجهات إلى صراعات خطيرة .

(1) القبس الكويتية، 20 شوال 1427 هـ الموافق 11 نوفمبر 2006م.

نماذج من العنف

في البعد السياسي والعقدي، ليس كل العنف ممقوتاً ومكروهاً، بل هو على وجهين، الأول عنف مشروع وهو لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ومقاومة الظلم، والثاني عنف غير مشروع وهو لمحاربة الحق ونشر الباطل وإشاعة الظلم. وسأسوق نماذج لكلا الوجهين .

الوجه الأول: العنف المشروع:

- **النموذج الأول**: الجهاد في سبيل الله، وأدلته من الكتاب والسنة كثيرة جداً، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقـــرة:216)، وقـال تعـالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:41)، وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبـــة: 29)، وقـــال تعـــالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾ (التوبة:36). وفي هذا الإطـــار خاض الرسول ﷺ حروبه كلها، ابتداءً من غزوة بدر إلى غزوة تبوك مروراً بغزواته الشهيرة: بني قينقاع، أحد، بني النضير، الأحزاب، بني قريظة، بني المصطلق، خيبر، فتح مكة، حنين، الطائف، تبوك، سوى عدد كبير من الغزوات الأخرى والسرايا والبعوث. ثم ما جرى بعد ذلك من حروب

الردة ثم فتح بلاد فارس وبلاد الروم ثم التوغل شرقاً في آسيا والتوغل غرباً وجنوباً في إفريقيا ثم شمالاً في أوروبا.

إن كل هذه الحروب مع ما صاحبها من عنف تصنف في إطار الفعل المشروع، وذلك لأنه جهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ليكون الدين كله لله ومن أجل أن لا تكون فتنة، مع مراعاة عدم قتل غير المحاربين من النساء والصبيان.

- **النموذج الثاني**: مقاومة المحتلين على مدى التاريخ الإسلامي، ومن أبرزه في الماضي مقاومة غزوات التتار ومقاومة الهجمات الصليبية على مختلف البلاد الإسلامية وخاصة القدس، وقد خلفت هذه الهجمات ملايين الشهداء (نحسبهم كذلك) من المسلمين. وفي الوقت الحاضر مقاومة الشعب الفلسطيني لاحتلال اليهود وكذا مقاومة بقية الشعوب الإسلامية لهجمات الغزاة والمستعمرين.

الوجه الثاني: العنف غير المشروع:

- **النموذج الأكثر دلالة**: القتل والتدمير وإهلاك الحرث والنسل الذي تقوم به قوات الكيان اليهودي في فلسطين.

فهناك الكثير من المذابح والمجازر التي ترتكبها القوات اليهودية بشكل يومي في أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة منذ اندلا ع الانتفاضة الأولى عام 1987م. وهذا نموذج ينقله مراسل القبس - كشاهد عيان - في غزة عبد الرزاق أبو جرز عن المذبحة التي نفذتها في 8 نوفمبر 2006م في بيت حانون (بعد أن أعلنت انسحابها منها في 7 نوفمبر 2006م). يقول المراسل: «صدمة، أسف، ذهول، استنكار، كل ذلك لا يصرف في مصرف المجازر التي تخصصت بها إسرائيل

للحم الفلسطيني العاري، لأطفال ونساء نصبت لهم الدبابات الإسرائيلية كميناً، وذلك بادعائها الانسحاب من بلدة بيت حانون في 7 نوفمبر 2006م مما أغراهم بالعودة إلى منازلهم المدمرة، لكن قذائف الدبابات حرمتهم من استقبال فجر نهارهم».

ثم يصف ما حل بأسرة بأكملها من جراء تلك القذائف فيقول: «أشلاء وقطع من اللحم وبقع من الدماء اختلطت بركام وحجارة منزل عائلة العثامنة التي سقطت كاملة بين شهيد وجريح بعد استهداف منزلها المكون من أربعة طوابق بقذائف الدبابات الإسرائيلية بشكل متعمد. هرع المواطنون مع سقوط أول قذيفة على منزل العائلة لاستطلاع ما جرى فلاحقتهم قذائف الاحتلال داخل المنزل. ومن بين الشهداء أطفال قطعت رؤوسهم وأطرافهم، ومواطنون قضوا وهم نيام على أسرتهم، وآخرون كانوا يهمون بالذهاب إلى المدرسة. بركة كبيرة من الدماء تجمعت على باب منزل العثامنة، التي استشهد ثلاثة عشر من أفرادها. وأوضح الشهود أن المواطنين المنكوبين أصبحوا يجرون في الشوارع بشكل عشوائي بحثاً عن أماكن آمنة للاحتماء من حمم القذائف التي طاردتهم في كل مكان إلى أن وصلوا إلى مدارس وكالة الغوث الدولية على أطراف البلدة للاحتماء بها. واكتظت أسرة وجنبات مستشفى كمال عدوان ومستشفى العودة شمال القطاع بجثث الشهداء والجرحى، وتم تحويل العشرات منهم إلى مستشفى في مدينة غزة لاستكمال العلاج»[1].

وأخيراً أشير ضمن هذا النموذج إلى ممارسات يهودية وحشية وبشعة جداً، منها:-

- طرد اليهود للفلسطينيين من أراضيهم واغتصابها وتشييد آلاف المستوطنات

(1) القبس الكويتية، 2006/11/9.

عليها وإسكان المهاجرين المغتصبين فيها.

– التهديم المنتقى والعشوائي لمنازل الفلسطينيين سواء بالقصف الجوي أو المدفعي بحجة المشاركة في الانتفاضة أو القيام بأعمال استشهادية، وتقدر المنازل التي استهدفت بعشرات الآلاف.

– اقتحام المنازل وأهلها فيها وتدمير أثاثها وتحطيم محتوياتها واعتقال شبابها وإشاعة الرعب والهلع في نسائها وأطفالها.

– اغتيال الفلسطينيين المجاهدين وذلك بالتهديف الصاروخي المباشر على السيارات أو الدراجات التي يستقلونها. وبهذه الطريقة الوحشية تم اغتيال عدد كبير من أفراد وقادة المجاهدين من حماس وغيرها وفي مقدمتهم الشيخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي وغيرهما.

خلاصة القول:

إن أمة الإسلام هي الأمة المستهدفة حالياً من قبل الإرهابيين العالميين، الذين يمسكون بزمام الأمور في دولهم ويوجهون آلاتهم العسكرية وإمكاناتهم الإعلامية وقواهم الاقتصادية لممارسة أنكى وأشد أنواع العنف لاستباحة مقدسات هذه الأمة العظيمة التي شرفها الله تعالى بحمل رسالته لإبلاغها للناس. إن قدر هذه الأمة أن تكون دائماً في ساحات المواجهة مع أعداء الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج:40) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.